موجة اثر موجة تلامس الشاطىء بنعومة قد تشتد احيانا حتى تكاد تشبه الصفعة القوية يرتجف لها قلب الانسان .

تلك هي حياة البحر ، موجة تدفع موجة ... وصفاء لا يعكره الا الزبد الذي ترسله الصفعة القوية والموجة الهائجة المشحونة بغضب البحر ، والتي تحمل الى قلوب ونفوس الناظرين اليها ، والى قلوب الذين يعيشون قرب الشاطيء .. البحر مساؤهم وصبحهم.. وغذاؤهم واملهم عندما تغلق منافذ الامل في حياة البؤس التي يعيشونها .

وهذا المركب السائر عبر الموج ، يقوده عبدالستار .. تدفعه الموجة هازئة فيتمايل معها .. ينحني لجبروتها في تواضع جم لا يعرف التحدي.

فاذا ثارت الموجة حاولت ان تتطاول على مركب عبدالستار .. ان تزيد في كبريائها وجموحها ، ارتفع من قلب القارب ساعدان مفتولان .. صلبان كالحديد .. وليتان في ساعات اللين ، ففي عروقهما الحنان والتصميم معا.. تمتدان معا في وجه الموجة المتطاولة المتعجرفة .. كما تمتدان للعناق !.. ويبدأ التحدي بين البحر وساعدي عبدالستار ، الذي يشق الموج .. جيوش الموج بمجذافيه ، مؤمنا كل الايمان ان احدا لا يستطيع ان يقف امام ارادة العيش الذي يسعى نحوه ويكافح . ويلقي عبدالستار شبكته ، ينشرها على سطح البحر كرشة عطر ، ويمسك اطرافها بساعديه متحفزا ... رجلاه مثبتتان في ارض القارب في توازن وحذر ، لا تؤثر فيه الامواج ولا الرياح ، وعيناه في البحر .. في الزبد .. وروحه تسير مع الامل على مسير حبال الشبكة حتى النهاية ، حيث تتجمع السمكات ..او يتمنى ان تتجمع ، لانه يجب ان تكون ملأى بالسمك ، والا فان الجوع سيؤذيه هذا المساء .. ربما طرده« ابو عجاج » وهو لا يملك شيئا .. الا القلب والجسد الاسمر القوي .. انه عاجز حتى عن شراء شبكة ، ولو قسطوا له ثمنها على عشرة اقساط ! وينتفض السمك في الشبكة ، وتسري الانتفاضة على مسير الحبال الى روحه ، الى الامل الذي كان يعيشه في الخيال .. الى قلبه وساعديه ..

وترد الساعدان الانتفاضة ، وتحملان الشبكة الى القارب وفي داخلها السمكات تتراقص مذبوحة من ألم العبودية . وتهرب من صدر عبدالستار زفرة ارتياح ، وتنتهي معركة اليوم .. ويعود القارب الى صخور الشاطىء ويحمل الصياد الاسمر شبكته وصيده الى معلمه ابي عجاج صاحب القارب وعشرات القوارب .. ويقف عند باب دكانه ينتظر ان يصرخ ابو عجاج بوجهه كعادته « كم اصطدت » ؟

ولكن ابا عجاج لم يصرخ في وجهه ، ربما لانه كان يتلهى بمغازلةشاربه الطويل الاصفر من دخان « الاركيلة » التي لا يفارق مشربها فمه طوال النهار ومعظم الليل !

وحاول عبدالستار ان يسعل ، ان يحدث حركة تنبه معلمه لوجوده .. ولكنه لم يفعل ، خاف ان يفسرها ابو عجاج تفسيرا سيئا ، ان يهتفبوجهه « قليل الادب !» .

وتحرك ابو عجاج وقال في هدوء وعيناه على الشبكة اولا ... وعلى كيسها ثانيا .. واخيرا على وجه عبدالستار ـ الامواج اليوم قوية ..كم اصطدت يا عبدالستار ؟

ـ اربع سمكات كبيرة وتسع سمكات صغيرة !!

ـ الحقيقة انك عامل كسول .. حرام الخبز يدخل بطنك .. فقط اربع سمكات ؟

ـ الريح قوية والامواج هائجة جدا و .. والله يا معلمي ..

ووقف ابو عجاج .. صارخا بوجه عبدالستار .. ـ امواج .. ورياح.. وكذب ونفاق .. انا ما بفهم .. مطرود .. مطرود اخرج .اخرج .

واستفاق عبدالستار على صوت المأساة « مطرود .. مطرود ..اخرج.. اخرج » مطرود هو .. فمن اين يأكل ، وليس معه اي شيء ؟.. وترقرقت عيناه بالدمع ، وهو يتوسل لابي عجاج ان لا يطرده ، ان يجربه ليوم آخر، وقال له انه سيشتغل الليل والنهار ..

وسعل ابو عجاج وهو يقف على باب الدكان وخلفه عبدالستار .. ثم قال له ـ عبدالستار !!

وانتفض عبدالستار .. ارتجف جسده للنداء ـ نعم سيدي .. امرك معلمي .

ـ اليوم صيدك قليل .. يوم السبت لازم تصطاد الضعف ..

ورمى اليه الليرتين .. دون ان يستمع لجوابه .. لانه يعرف تماما ان عبدالستار لن يعترض لئلا يموت جوعا .

وخرج عبد الستار ويده تعبث بالليرتين ، بالثمن البخس يساومه عليه الناس .. وابتعد عن دكان ابي عجاج ، وبدأت آلامه تخف ، بدأ تفكيره يتجه اتجاها اخر .. شأنه شأن كل المعذبين من ابناء شعبنا ، الذين يرمون بالصور المؤلمة بعيدا عنهم في ساعات فراغهم ..

كان يفكر في « لطيفة » الوحيدة التي تمحو في مساء كل يوم شيئا من آلامه وعذابه ، وصراخ ابي عجاج وعجرفته وغضبه ..

ان الموجة العابرة من الحب البريء التي يتلقاها من شفتيها فيابتسامة خجلى ، تبدد ولو الى حين كل الصور البشعة عن هذه الحياة .

ولكن ما بال لطيفه تقف في طريقه كتمثال الشمع ، لا تبتسم ولا تقترب ولا تلوح له بعينيها من بعيد كعادتها !؟

ما هذا الجمود الطارىء في الشفة ، وما هذه الرطوبة في العينين ؟ اهي تبكي . ام هو مشروع بكاء ؟! اثمة امر يزعجها ، هل أساء اليها ؟. ان شيئا من هذا لم يحدث فهو يحتاطها بحنان الحب الذي يغار .. بل ويغار عليها من نفسه وعينيه هو .

ويلتقي بلطيفته في زاوية الطريق بعد ان حرك جمودها بهتافه«تعالي.. تعالي » وتحرك تمثال الشمع الى الزاوية كالحمل الوديع يسير في حب واستسلام .

وامسك بيدها يتحرى فيها الحياة ، ليتاكد انها ما تزال حية وأن جمودها طارىء وللحظات .

ويسألها عن سبب وجومها ، عن الابتسامة الميتة النائمة على شفتيها هذا المساء !

تحركت شفتاها .. حاولت ان تتكلم ولكنها انهارت سريعا ، لم تفارق الكلمات ثغرها ، لم تخرج وتتدحرج ، لان حشرجة الدمع اوقفتها ..وبدأ حديث الدمع !

ومسح عبدالستار دموعها .. كان يتلقفها دمعة دمعة .. والدموع لا تتوقف عن المسيل ، وأحس ان الامواج التي يتحداها كل يوم من الصباح الى المساء ، اضعف بكثير من الدمعة التي تذوب من العينين الصافيتين.. انه يتحدى الامواج بساعديه ، ولكن العزم والتصميم اضعف من ان يستطيعا معا ، كبت الالم والانتصار على دمعة فتاة واحدة لها قلب يدق.. ويدق .

والقت لطيفه رأسها على صدر عبدالستار وظلت تبكي وتبكي .. وتمتمات متقطعة تخرج من فمها « لن اتزوج غيرك .. سأموت يا عبدالستار اذا زوجوني خالد الراعي .. سأموت .. » وتعاود البكاء ورأسها مدفون في عنف بين ساعدي عبدالستار .. وظلام المساء يخفي اسرار العاشقين دائما .

جرب عبدالستار ان يتكلم ، ان يقول لها ان بامكانه ان يتزوجها هو، ولكن يده تحسست الليرتين ..

وخرس من هذا التحسس .. معه ليرتان فقط .. فهل يتزوج ؟

ويفكر لحظة في الزواج .. ويتذكر انكثيرا من رفاقه العمال يتزوجون.. وأجرهم مثل اجره ، فلماذا يحرم نفسه من لطيفه ؟ اتزيد الالام اكثر لو كانت معه ؟ وهل يمكن ان تزداد اكثر مما هي عليه الان ؟..

وضم لطيفه اليه .. والليل يحرسهما « يوم السبت اذهب وأخطبك.. ستكفينا اجرتي .. ارفضي خالد الراعي .. وانتظريني عندما اعود مساء من الصيد ... »

وهربت منه فرحة .. وفي خاطرها الف الف صورة عن يوم السبت. وبقي عبدالستار في مكانه يفكر .. ويفكر .. ويده تعبث بالليرتين ...!!

✶

الساعة جاوزت السابعة مساء ، ولم يعد عبدالستار من رحلة اليوم ، ولطيفه تقف على الشاطىء ، عيناها في البحر تنتظر عودة عبدالستار ، وعلى فمها ابتسامة ليست ميتة ولا جافة ولا حزينة ، ان عينيها تسبحان بعيدا بعيدا في البحر الواسع ، سيعود عبدالستار .. حبيبها الاسمر.. معه السمك .. وقاربه يهتز فوق الموج ثائرا منتصرا ..

كان الموج هائجا ، ولكن لطيفه لم تفكر مطلقا بأمر الموج ، لانها تعلم ان عبدالستار قوي .. وان الموج لم يغلبه ابدا .. او ربما لانها تعيش في جو من الفرح .. انساها صور الشر .. وانتزع من قلبها .. حدس الشر ..

سيعود عبدالستار .. سيضمها الى صدره .. ويذهبان معا .. الى ابيها .. ليقول له : سأتزوج لطيفه . وتضع يديها على وجهها ..وتغيب في حلم اخضر .. وحبات الماء الطائشة المتناثرة من امواج البحر .. ترتمي عليها فلا تشعر الا بنشوتها تزداد ..

✶

عبد الستار يصارع الامواج ، يلقي بالشبكة مرة اثر مرة ، وعدد السمكات لم يتجاوز عدد سمكات يوم امس ..، فالامواج تهز القارب بعنف اقرب ما يكون الى عنف الثار .. وقميص عبدالستار مبلل بالماء ، كأنه مغسول منذ لحظات ..

ساعدا عبدالستار يكافحان .. يصارعان .. والشبكة ترتفع ثم تنتشر .. وعدد السمكات لم يزدد .

سيطرده ابو عجاج سيقول له « مطرود .. مطرود اخرج..اخرج » ويخرج بلا مال .. بلا عمل .. ليخطب لطيفه ..

وتزداد المأساة بشاعة في ضميره .. ويشعر انه يفقد اشياء كثيرة كانت تربطه بالحياة .. لطيفة .. ولقمة العيش .. ستمتد يده الى جيبه مساء كل يوم .. فتلامسان الفراغ .. وسيمر من قرب بيت لطيفه فلا يسمع صوتها ، ولا تطالعه ابتسامتها الحلوة .. سيموت جوعا ..!

ويرمي الشبكة مرة اخرى شانه شان المقامر الذي يظل على صلة بأمل الربح . .

وترتفع الشبكة مرة اخرى الى القارب فارغة خفيفة ينبعث منها نداء البخل يرسله البحر .. ويلقي عبدالستار نفسه في ارض القارب مشلولا عن الحركة جامدا .. عيناه في السمكات يتمنى لو تضاعف عددها ..لو ان البحر ليس بهائج ولا مزبد .. لو انه كان اكرم عليه بالسمكات.. الامواج تضرب القارب ويزداد صفير الريح .. الزبد يرغي والقارب يتارجح وعبدالستار لا يحرك ساعديه في وجه العاصفة ..

الساعة الثامنة والنصف مساء ..

قالوا على الشاطىء ان قارب عبدالستار غلبه الموج .. انقلب وتحطم.. وعادت السمكات الى الماء .. ووصلت اخشاب القارب الى الشاطىء ..

وبعد نصف ساعة من البحث ، وصلت سمكة كبيرة ضخمة الى الشاطىء ..اعطوها للطيفة الباكية .. دون كلمة عزاء واحدة ..

لطيفة تحتاط السمكة الميتة الكبيرة باكية محروقة القلب .. وابو عجاج يفتل شاربه ويمص دخان اركيلته ويصرخ في وجه عامل آخر اسمه جرجور « مطرود .. مطرود .. اخرج .. اخرج » .

ادار حشوه

صدر عن دار صادر ـ دار بيروت

الاثمة الاثنا عشر ٢٥٠ ق.ل

لمؤرخ دمشق شمس الدين محمد بن طولون بتحقيق

الدكتور صلاح الدين المنجد ـ مرجع خطير لا يستغني عنه

اي باحث ـ يطبع لاول مرة